مجلة الحكمة للدراسات التاريخية ISSN : 2353-0472
المجلد5 ، العدد10، (جوان 2017) EISSN : 2600-6405

خطوط عريضة لجهود التعريب بالجزائر في ظَل الاستعمار الفرنسي- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجا(1931م-1956م)

الأستاذ: معيوش براهيم
جامعة محمد لمين دباغين - سطيف-

ملخص باللغة العربية:

ليس من قبيل المبالغة إذا ما قلنا أنه ليس هناك أي لغة من لغات العالم تم محاربتها مثلما فعلته فرنسا باللغة العربية في الجزائر، و إذا ما لم يعرف الجزائريون أي مشكلة لغوية قبل الاحتلال الفرنسي فإن الحال ليست كذلك بعده، حيث تجرعت لغتهم الرسمية (العربية) منذ بداية الاحتلال إلى نهايته كل ألوان الشقاء جعلتها تواجه معضلات حقيقية لا تزال تواجهها إلى يومنا هذا، لكنها بقيت حاضرة في المشهد الثقافي بالجزائر، و الفضل يعود إلى أبنائها الخلص الذين يعد المبادرين بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أبرزهم، و الذين لا يسع المنصف الذي يتحدث عن نشاطهم الفياض في الدفاع عنها سوى الحكم عليهم بالتقدير لقاء ما بذلوه في سبيل إعادتها للواجهة و إحيائها من جديد فلولا تلك الجهود لكان مصيرها أسود لا يجدي معه شيئا و لا ما بقي الشعب في صلة معها و هي التي كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تدخل كهف النسيان في تلك الحقبة المأزومة.

ملخص باللغة الانجليزية:

It is no exaggeration to say that none of the languages of the world have been fought as France did in Arabic in Algeria. If Algerians do not know any language problem before the French occupation, then it is not, whereas since the beginning of the occupation, their official language (Arabic) has brought to an end all the colors of misery that have confronted them with real dilemmas that they still face to this day, but remained present in the cultural scene in Algeria, this is due to the faithful sons, who are the initiators of the establishment of the Association of Algerian Muslim Scholars, the most prominent of

them, and those who cannot fair to talk about their big work in defense only to judge them in appreciation for what they have done in order to return to the facade and live it again, and without those efforts would be a black fate, does not work with it and nothing is left the people in connection with it which was near the forgetfulness at that time of crisis.

مقدمة :

تُعتبر الجزائر من بين البلدان التى تعايشت فيها ثقافات متعددة جعلتها تزخر بموروث ثقافي متميَز جدا ، ولكَن هذا الموروث تعرض ولفترة طويلة إلى محاولات الإقصاء بداية من سقوط الجزائر في براثن الاستدمار الفرنسي الذي عمل مُنظَروه بكَل ما أتيح لهم من وسيلة على أنْ تتراءى أمة الجزائر من بعيد ضمن ذاكرة مغتالة وتاريخ لم يعد إلاَ في السجَلات يطوي معظمه النَسيان ، فبعد أنْ كانوا يحتكمون إلى منطق الحروب الناشر لكل أنواع الانحراف اتجهوا بكيدهم إلى نوع آخر من أنواع الجرائم وهي الجريمة الحضارية، حيث ساوموا الشعب الجزائري في معالم شخصيته قصد تحضيره للانصهار في الثقافة الغربية بكل مُكوناتها ومن بين هذه المعالم التي حاولوا وفق مخططات مدروسة قطع صلته بها اللغة العربية باعتبارها لسان الإسلام الذي صنع اللَحمة الاجتماعية والدينية والثقافية للمجتمع الجزائري وقد جهَزت لذلك كل الإمكانات وجنَدت كل الطاقات الشيء الذي أثَر سلبا على الساحة الثقافية في الجزائر كون أنَ اللغة الدخيلة (الفرنسية)بمرور الوقت أصبحت حقيقة ثقافية يحتك بها الكثير من الجزائريين وتُهيمن بأجهزتها الفكرية على جانب واسع من حياتهم الحضارية ككل، وإثر هذا الضرر البالغ الذي أصاب اللغة العربية الأصيلة كان لزاما على أبناء الجزائر العمل الجاد على إعادتها للواجهة فظهرت بعض من المبادرات الفردية في كثير من ربوع الوطن لكنَها لم تستطع إحلالها مكانتها التى تستحقها وبقي الأمر على حاله حتى مطلع ثلاثينيات القرن الماضي أين وُقَعت شهادة ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ببادرة خيَرة من زينة علماء الجزائر تبنَوا مشروعا إصلاحيا واسع النَطاق يُعد التعريب إحدى الجوانب التى كان نشاطهم فيها فيَاضا حيث اجتهدوا لإحياء لغة الضاد في الجزائر قبل أنْ تلفظ نفسها الأخير أمام مرأى ومسمع من أهلها .

وسنُسلَط في هذا العمل الضوء على حقيقة تلك الجهود المُضنية التى عُلَقت عليها الآمال لحفظ لغة الضاد من الضياع في الجزائر لكن قبل ذلك رأينا من تمام الفائدة الإشارة إلى العناصر الآتية:

- مسيرة اللغة العربية في جزائر ما قبل الاحتلال الفرنسي .
- الواقع اللغوي في الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي .
- جهود الجمعية وطرائق عملها في الإصلاح اللغوي (التعريب) بالجزائر .

1-) مسيرة اللغة العربية في جزائر ما قبل الاحتلال الفرنسي:

إنّ اللغة في حقيقتها ليست ألفاظا ذات معاني تستلزمها عملية التواصل بين الأفراد والجماعات الإنسانية لتنسيق العلاقات فيما بينهم وليست تُكتسب أيضا قيمتها من وظيفتها التي تقوم بها وهي التعبير عن ما يدور في خلجات الأفراد وحاجتهم و إنَما رمز من رُموز الهوية والسيادة الوطنية لأي مُجتمع من المُجتمعات وعاملٌ رئيس مُهم لانتقال الثقافات بين العُصور(1) ، والحديث عن اللغة العربية في الجزائر قضيةٌ قد يصعُب الحديث عنها عند البعض كون الأمر يتعلّق ببدء مرحلة جديدة ليس في الجزائر فقط وإنَما في كُل الشمال الإفريقي تتمثل هذه المرحلة في التحوُّل من استعمال اللغات الأخرى بشتى أنواعها إلى استعمال لغة الضاد كلغة بديلة عنها لأنّها تقترن بظهور الإسلام بالمنطقة ككُل ، ما يعني التخلُص من سيطرة الماضي الذي لم يستطع فيه الجزائريون أن يجعلوا من لغتهم وسيلة للمعرفة والثقافة ومثل هذا الكلام ليس عاطفة ولا تقييما أخلاقيا وإنَما حقيقة تُصدَقها كل المصادر التاريخية التي سقطت بين أيدينا فلم نجد فيها ما ينفي ما ذهبنا إليه إذ أنّ لغة السكان الأصليين (الامازيغ) مع اختلافها من منطقة إلى أخرى لم تكن على الإطلاق لغة العلم والمعرفة وإنَما بقيّت حبيسة الاستعمال الشفوي ما جعلها تتداخل في كثير من الألفاظ والكلمات مع لغات الأجناس التي سجّلت حُضورا بالمنطقة ، أما بالنسبة للكتابة بها فكذلك لها طابعٌ إشكالي فأكثر ما كُتب اندثر وتعرَض للضياع وما وصل إلينا لا يتعدى قلةٌ من الوثائق والكتابات التي تُؤكّد فعلا أنّ هذه اللغة التي يُعوّل البعض على إحيائها لم تستطع الارتقاء لتُشكّل نبضا من نوابض الإبداع الفكري والعلمي معا ، الشاهد لجوء بعض مُنتجي الأفكار ومُثقفي تلك الفترة من الزمن إلى الاستعانة في كتاباتهم باللغات الأخرى وبشكل أخّص اللاتينية .

لقد بدأت الإرهاصات الأولى للعربية في الجزائر بالمُوازاة مع الفتح الإسلامي الذي شهده الشمال الإفريقي في القرن الثامن الميلادي ، وبالرغم من الصَدام الذي حدث بين السُكان الأصليين (الامازيغ) والفاتحين (العرب) لاعتقادهم أنّ الفتح لا يختلف عن بقية الاحتلالات السابقة ،بدأت العربية في الانتشار باتخاذ الإسلام دينا يتّبعُوه وبعلاقات المُصاهرة التي جمعت بينهم و التي أثمرت مجتمعا مُتوادا ومُترابطا مع احتفاظ السكان الأصليين وانفرادهم ببعض النُظُم الاجتماعية والسياسية الخاصة بهم ازداد انتشارها حتى أضحت لغة مُعظم سكان الجزائر وكما يذكر المؤرخون الُنزهاء أنّ انتشارها لا يُمكن ربطُه بالقّوة وإنّما لإقبال السكان الأصليين على تعلُمها لاقترانها بالشريعة الإسلامية التي اتخذوها دينا جديدا لهم هذا من جهة ومن جهة ثانية أنّها أحسنت جوار اللغات أو بالأحرى اللّهجات التي لا تزال إلى الآن تُسجّل حضورا في كل ربوع الوطن بحُكم أنّ كل جنس احتفظ بها مع اشتراك الجميع في فكرة أنّ الأصلح للشعب الجزائري هو إتخاذ لغة الضاد لسان الأمة الجزائرية ما دامت مقرونة بالإسلام الذي قضى على كل النّعرات الطائفية والعرقية بالمنطقة، أما الدليل العقلي الذي يُؤكد أنّ هذه اللغة لم تُنشر بالقوة كما يُشيَعة البعض هو أنّ الفاتحين كانوا قلّة مُقارنة مع السكان الأصليين ومن غير المنطقي أنْ يفرض من يُمثلون قلة لغتهم على الكُثرة، وقد إزداد تطورها بعد ذلك واستطاعت في ظرف قياسي أنْ يعلو شأنها بين الأمازيغ لأنّ فهم الإسلام ومبادئه السامية كان يقضي تعلُم اللغة العربية وإجادتها حتى لا يكون هناك إنحراف عن معاني ألفاظها ، وطبعا الشواهد كثيرة على تعلَمهم للغة الضاد وإلا كيف نُفسَر إجادتهم لها كتابة ونُطقا لولا الرغبة المُلّحة في ذلك وعدم تعصُبهم للغتهم اتجاه اللغة العربية (2) ، ثُم إنّ الجزائري الذي وجدت العربية بابا مفتوحا إلى نفسه كان يحرص أشد الحرص على نشرها بين أهله وذويه ويسعى دائما إلى إتقان النُطق بها (3)، ولعله ليس من المبالغة القول أنّ الثقافة الإسلامية إحتوت الثقافة الأمازيغية لأنّ كل الجزائريين أصبحوا يتشابهون في التفكير والمُيّول بالإضافة إلى نُبوغ كوكبة من جهابذة العلماء المُتشرّفين بأمازيغيتهم والمُتمكّنين من العربية تأليفا ومُدارسة علميين وقد برز هؤلاء في مجال اللغة والأدب والنحو وكتبوا ببراعة بلغة الضاد ،كما أنّهم ساهموا في تطويرها وترقيتها وبطبيعة الحال لو فتحنا القوس هنا للحديث عن مؤلفاتهم وإسهاماتهم لضاق بنا المقام لما هم عليه من كُثرة ولكن من باب الاستشهاد سنذكر بعضا ممن تركوا بصماتهم بما كتبوه من بدائع المؤلفات كيحي بن معطي الزواوي صاحب الدرة الألفية في علم العربية (4)،ويكفي

للتدليل على نباهته وإسهامه في إثراء اللغة العربية أنّه استطاع في سّن لا تتجاوز الحادية والثلاثين أنْ يوجد في نمطا تعليميا مُتكاملا في النّحو العربي بعد أنْ لم يكن موجودا(5) وأبو جميل ريان إبراهيم فايد الزواوي واحمد بن نعمان البجائي ويحي بن سليمان الاوراسي (6)، وابن أجروم الأمازيغي الجزائري الذي يُعدّ أوّل من أسّس منظُومة نحوية لعلم العربية (7) ، وغيرهم كثيرون جدا يطُول ذكرهم فبالنسبة للمجتمع الجزائري الذي اختار الإسلام بلغته الرسمية وهي اللغة العربية أصبح من المُغالطة الموازنة بينها وبين لغة أخرى مهما كانت هذه اللغة غنية أو فقيرة (8).

بما أنَ اللغة كيانٌ حيٌ ناميٌ في حالة تطور مُتصل مع تطور حياة الأمم وعناصر ثقافتها المادية والفكرية ومع تجاربها التاريخية (9) بقيت اللغة العربية حاضرة في الواقع الثقافي الجزائري خاصة المجالين الفكري والعلمي واستطاعت أنْ تُحافظ على مكانتها التي تبوأتها في نُفوس أفراد المجتمع الذين كان أغلبيتهم على معرفة جيّدة بها يستطيعون قراءتها وكتابتها وحتى بعد أنْ أصبحت الجزائر تحت حُكم الأتراك الذين تمّ الاستنجاد بهم لصدّ العُدوان الاسباني بقي النّهل من مناهل العلم والأدب يتّم بها لأنَهم لم يقوموا بحركة ثقافية حيّة تستهدف إبعادها من ميدان الثقافة والعلم ، ولعل المجال الوحيد الذي استطاعت اللغة التركية مُنافسة العربية هو الادارة ولم يتعداه إلى مجالات أخرى فلم نعثر في مصادر التاريخ على معلومات حول تشجيع الترك لتعليم لغتهم أو حول صراع لُغوي في الحقبة التي حكموا فيها البلاد ، الشيء الذي جعل العربية هي السائدة في جميع المؤسسات التعليمية والثقافية وجُملة هذه الظروف مجتمعة هي التي ساهمت بشكل أو بأخر في عدم تغييب لغة الضاد عن الواقع اللغوي في الجزائر من زمن الفتح الاسلامي الي الحقبة التركية حيث بقيت طوال هذه الفترة لغة من دون مُنازع لغة الثقافة والفكر وكل الكتب التي أُلّفت في الدين والعلم والأدب كانت بها.

2-) الواقع اللغوي بالجزائر في فترة ما بعد الاحتلال الفرنسي :

بعد حُلول الفرنسيين بالجزائر فكَر خُدّام الإدارة الاستعمارية في طريقة أخرى تُساعدهم على تأصيل الاستعمار بالمنطقة ،فاهتدوا إلى إستراتيجية تقضي بمحو الشخصية الجزائرية الأصيلة واستبدالها بشخصية دخيلة وذلك عن طريق فرنسة الألسنة والعقول (10)، وقد كانت الإدارة ترى في سياسة الفرنسة اللغوية مفتاحا يُمكّنها من جعل الجزائر ذات مصير مرتبط بفرنسا ارتباطا مُباشرا من منطلق أنّ اللغة هي

الإنسان الذي يست خدمها، هي أفكاره، أحاسيسه ورغباته، بل هي قبل كل شيء الوسيلة التي يستطيع من خلالها أنْ يكون فردا مُؤثرا في المجتمع فقيمتها لا تتأتي من فراغ وإنَما من كونها بحق صانعة الثقافة برموزها ومعانيها وتداعياتها وهي التي تُوّحد أفراد المجتمع وطبقاته لتجعلهم أمة(11) ، فصلة اللغة بالمجتمع والحضارات الإنسانية من هذا المنطلق ليس في حاجة إلى بيان ما دام انّه من اللاّمعقول الحديث عن الفكر والثقافة بدون أنْ نُشير إليها ، وهذا يكفي ليُفسّر لنا الدواعي التي كانت وراء تجهيز الإدارة الاستعمارية لكُل الإمكانات المُتاحة وتجنيدها لكل الطاقات هدفا منها إلى تغييب اللغة العربية عن الساحة الثقافية في الجزائر أو على الأقل العمل بها لأجل أنْ تكون في أدني درجات التدهور .

لقد كان القائمون على الإدارة الاستعمارية بمُختلف مواقعهم يُدركون إدراكا تاما المعنى من فرض لغتهم الدخيلة ، وما لذلك من نتائج قيّمة تخدُم مصالح الحكومة الفرنسية العُليا وتساعد بشكل فعَال ولو على مدى الزمن البعيد في سلخ أبناء الشعب الجزائري عن احدى مُقوّماتهم التي تُميّزهم عن الآخرين ممن يختلفون معهم في التوّجه والمصير والذاكرة ، كما أنّهم كانوا يعوون تمام الوعي منذ السنوات الأولى للاحتلال أنّه سوف لن يستقّر بهم المُقام بصورة مُطلقة بالجزائر إلا حينما تختفي اللغة العربية من ألسنة أفراد المجتمع الجزائري ، والدلائل على الإدراك والوعي التامين اللذين أشرنا إليهما كثيرة فقد جاء في إحدى التعليمات التي صدرت في السنوات الأولي للاحتلال الفرنسي على لسان أحد المسئولين على شؤون الإدارة في الجزائر مُشيرا إلى ضرورة العمل الجاد على كل المستويات في سبيل إحلال استبدال اللغة الأصيلة بلغة المُستعمر ما يأتي : " إنّ إيالة الجزائر لن تُصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا حينما تُصبح لغتنا هناك لغة قومية ، والعمل الذي يتوّجب علينا انجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتّدرج إلي أنْ تقوم مقام اللغة الدارجة بينهم الآن (12) ، كما جاء أيضا في احدى القرارات التي أصدرتها السلطات الاستعمارية سنة 1949م سعيا منها لفرنسة الأهالي ما يلي : " إنّ من أهّم الأمور التي ينبغي أنْ نعتني بها قبل كل شيء هو جعل اللغة الفرنسية مكان العربية دارجة و وعامة بين الأهالي الذين عزمنا على استمالتهم إلينا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين (13) ، وما لجوء الادارة إلى البدء في العمل المُباشر منذ السنوات الأولي للاحتلال لتجميد اللغة العربية في الجزائر وإيقافها عن التطور الاّ لكونها اللّسان الذي ينطق به الدين الإسلامي وجوهر عقيدته وهو الشيء الذي يُصّعب من تأصيل ثقافتهم

الدخيلة فذلك لا يكون إلا إذا غُيّبت هذه اللغة عن الواقع الثقافي بالجزائر لأنّها حصنٌ منيعٌ يمنع الذوبان في هويات الأمم الأخرى ، وهو ما تُصدّقه أراء الكثير من الفرنسيين أنفسهم الذين اعتبروا أنّ اللغة العربية الفصيحة عامل من العوامل الرئيسة التي عطّلت مشروع إلحاق الجزائر بفرنسا على غرار" جاك بيرك" الذي ذكر أنّها هي التي حمت الجزائر من الانصهار(14)، وحالت دُون ذوبان المجتمع الجزائري في البوتقة الفرنسية بصورة مُطلقة .

إنّ الحديث عن الاستراتيجيات التي فكّرت فرنسا في تطبيقها على أرض الواقع لمحوّ اللغة العربية من ذاكرة الشعب الجزائري حديث مُتفرّع ومتشعّب لأنّها بدأت مع بداية الاحتلال واستمرت طوال الوجود الفرنسي بالجزائر ، وسنُحاول أنْ نستعرض بعضا من أشكال التعسُّف والجور اللذين طالا اللغة العربية بتخطيط من الخُبراء الاستعماريين قصد إدخالها كهف النّسيان حيث بدؤا بفرنسة المحيط من خلال إظهار لغتهم في واجهات المحّلات والشوارع وكل المرافق العامة وأُستُبدلت معظم الأسماء العربية للشوارع والمُدن بأسماء لقادة الغزو الفكري والعسكري أمثال بيجو، كلوزيل ، لافيجري ، ولأعلام الفكر والأدب الفرنسيين مثل ديكارت وفيكتور هيجو ولامرتين (15) ثمّ عمدوا إلى نهب التُراث الثقافي العربي الإسلامي وسمحوا للعسكر في بداية السنوات للاحتلال بحرق كُل ما كُتب بلغة الضاد من كُتب ومؤلفات ومخطوطات ووثائق وسنضرب مثالا على سبيل الحصر لكُثرتها وهو ما فُعل بمكتبة الأمير عبد القادر الذي ذكر عنه المؤرخون أنّه كان يتتبع آثار الطابور الفرنسي مُسترشدا بالأوراق المبعثرة في الصحراء والتي انتزعها الجنود من الكُتب التي عانى الكثير في جمعها(16)، فالمُتعصبون من خُدّام الإدارة الاستعمارية كانوا يرون أنّ بقاء اللغة العربية بالجزائر إجحاف في حق فرنسا التي جلبت الحضارة والمدنية كما كانوا يزعمون، فاتجهت إلى المدرسة باعتبارها أهّم مؤسسة من مؤسسات التنشئة الاجتماعية بعد الأسرة ليجعلوا فيها التعليم بكل الأطوار من المستوى الابتدائي إلى الجامعي إجباريا باللغة الفرنسية وحدها الشاهد ما ذكره حمدان خوجة الذي عايش عن قُرب أطوار الغزو الفرنسي حيث ذكر أنّ السلطات الفرنسية كانت تجمع أطفال الأعيان وتُرسلهُم إلى فرنسا ليتعلموا الفرنسية ومن يرفض الإجراء يُعتبر خارجا عن طاعة الفرنسيين ويجب أنْ يخرُج من مدينة الجزائر(17)، وقد تجاوز التضييق على اللغة العربية بعد ذلك كل الحدود حين كان معلّم اللغة العربية يقف في قفص الاتهام مع اللُّصوص والسّفاكين وتُجري عليه العقوبات مثلهم بالسجن والتغريم

والتعذيب (18)، كما أنّ الإدارة كانت تعتبرها لغة أجنبية أقّل من اللغات الأجنبية الأخرى كالانجليزية والاسبانية والايطالية والألمانية (19) وذلك بمُوجب مراسيم يتّم استصدارها مثل قانون 29ديسمبر 1904م الذي لا يسمح للمعلمين المسلمين إدارة مكاتب التعليم باللغة العربية بدون رخصة يتّم منحها من طرف قائد الفيلق بعد تقديم ضمانات أهمها استبعاد دراسة تاريخ الجزائر العربي الإسلامي وكذلك استبعاد الأدب العربي بجميع فنونه (20) ، وقانون سنة 1938م الذي يمنع تدريس اللغة العربية في المدارس الابتدائية بعد أنْ كان يسمح بذلك (21) ومن صُور الإهانة والإذلال أيضا التى اصطنعتها الإدارة الاستعمارية للنّيل من اللغة العربية في عُقر دارها نجد أنّ كل مدرسة أصلية عربية إذا سُمح بفتحها إنّما تخضع لقانون المدارس الأجنبية وأنّ كل جريدة تصدر بالعربية إذا سُمح بصدورها إنما تخضع لقانون الصُحف الأجنبية وهذا يدُل قطعا على أنَ خُدّام مصالح فرنسا العليا لم يتساهلوا ولو بالنَزر اليسير مع العربية فإذا ما لبّت رغبة الجزائريين إلى حدّ ما في فتح مدارس جديدة لتعليم أبنائهم فان ذلك لم يتم بالنسبة للغتهم الأم حيث رفضت رفضا قاطعا تلبية رغبتهم الثانية وهي إدخال العربية بصفة رسمية في البرامج الدراسية مع اللغة الفرنسية (22) ، فالفرنسيون كما قال عنهم أحد الساسة النّشطين في الحركة الوطنية وهو فرحات عباس لم يُعلّموا أبناء الشعب لغتهم ولا تركوا لهم الحرية في تعلُم لغتهم الأصيلة (23) ثم إنَ المدرسة(الاستعمارية) التي كان يتحدث عنها الفرنسيون لم تكن تهتّم أصلا بنشر عناصر الثقافة الأوربية ولم تسعى إلى اكتشاف ذكاء تلاميذها ودفع مواهبهم وإنما سعت إلى خلق آلات ذات كفاءات محدودة .(24)

بعد المدرسة إتجّه الاستعماريون بكيدهم للغة العربية إلى الإدارة فجعلتها فرنسية في كل صغيرة وكبيرة بموجب احدى المراسيم الجائرة التي صدرت بعد عشريتين فقط من الاحتلال جاء فيها الأتي " إنّ لغتنا هي اللغة الحاكمة وبها يجب أنْ تُكتب كل العقود وليس لنا أنْ نتنازل عن حقوق لغتنا" (25) ، وبالفعل تمّ العمل الجاد لتطبيق هذا المرسوم لدرجة أنّ الباحث لا يكاد يعثر على أيّة وثيقة مكتوبة بالعربية حيث مُنع استخدامها في المراسلات الإدارية بين الأجهزة الحكومية كما قصر حق التوظيف والعمل على من تعلّم الفرنسية (26) التي كانت تُسمى لغة الخبز، ويكفي أنْ نذكر للاستدلال على أبشع صور المهانة ما كان يُفعل بالرسائل التي يتبادلها أفراد المجتمع الجزائري الذين لم يتعلّموا إلا لغتهم الأصلية ورفضوا لغة المُحتل إذ كانت كل رسالة بريد تُعنوّن باللغة

العربية كان مصيرها الإهمال (27) والإتلاف بحُكم أنّها لم تكن تتّخذ وجهتها ولا تصل إلى أصحابها ، وبعد أنْ جرّبت السلُطات الاستعمارية كلّ شيء في مسح اللغة العربية من ذاكرة الشعب الجزائر بقي لها فقط أنْ تُجرب مع وسائل الإعلام وما لها من تأثير بارز وفعّال على المُتلقين خاصة وأنّها في زمن عرفت فيه شُيُوعا وتقدما بالغيّن إذ صورت باختلاف أنواعها مُدّرس اللغة العربية بصورة هزيلة ، يظهر فيها ساذجا أبله حتى أصبح كل من يُحاول الكلام بالفُصحى مثالا للسُخرية والتفكُّه (28) كما روّجوا لأُغلوطة ترددّت على الألسُن مهّدوا بها إلى وصْم العربي (المُتحدّث باللغة العربية) بأنّه بليد الفكر جامدُ القريحة سطحيُ التفكير مسدُود الشهيّة العلمية(29) ، ضاربة عرض الحائط حقيقة لا يُمكن نُكرانها وهي أنّ اللغة العربية التي أصبحت تتعرّض لكُل صُور الازدراء كانت إلى عهد قريب كما تُثبتُه مصادر التاريخ محّل اهتمام العُلماء الفرنسيين أنفسهم ومُفكّري العالم الغربي بأسره ، بل منهم من انكّب على دراستها والتعلُّم بها في الزّمن الذي عرفت فيه ذروة إنتاجها الفكري وأوّج إشعاعها المعرفي، وعلى كل لم تتغير نظرة الفرنسيين السوداوية إلي اللغة العربية مُطلقا حيث متى ذُكرت إلا واقترن ذكرها بصفات الذّم ونُعوت السوء وقيل عنها أنّها فقيرة في الاصطلاحات الفّنية وجامدة التراكيب ومُعقدُة العبارات وكُل ذلك هو الذي يحُولُ دون صيرُورتها لغة صالحة (30)، ثُم إنّ الأدهى والأمّر هو أنّها بالإضافة إلى مُحاصرتها بلغة المُحتّل التي تزايد انتشارها اهتدى القائمون على شؤون الإدارة إلى طريقة جديدة تظهر أنّها أكثر لينا فقد رأى هؤلاء أنّه من سداد الرأي انتزاع اللغة الأصيلة من أبناء الشعب ليس بالقُوة والتعسُف وإنما بإحياء اللَهجات المُتنوعة وذلك لما وصلوا إليه من قناعة أنّ اختلاف اللّسان يُمكّن من النبش في كل دواعي الفُرقة بين الاثنيات والأجناس ، فاللغة فاعل لا يُستهان به إما في التوحيد أو التفريق على حدّ سواء ولعلَ ما ذهبوا إليه يصدّقُه أحد الأُدباء المعروفين وهو الرافعي الذي ضرب مثالا يستدّلُ به على خطورة تحّوُل مجتمع من المُجتمعات عن لغته الأم وعلى أضرار اختلاف الجماعة الواحدة في اللّسان وتعصُب كل فرد منها لما ينطق به حيث قال : " فلن يتحوّل الشعب أول ما يتحوّل إلا من لغته إذ يكون منشأ التحوُّل من أفكاره وعواطفه وأماله وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه ورجعت صورته محفوظة في التاريخ لا مُحققة في الحاضر حتى إنّ أبناء الأب الواحد لو اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة ونشأ الثاني على أخرى والثالث على لغة ثالثة لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة أباء"(31)، فعمدوا في مسعاهُم إلى إتبّاع نفس الطريقة التي كانوا قد اعتمدوها في إحلال

المسيحية مكان الإسلام حيث توّجهوا إلى المناطق المأهولة بالامازيغ وشيّدت بها العديد من المدارس و قصد أنْ تنجح سياسة الفرنسة بشكل أفضل منعت التكّلُم فيها بغير اللّهجات المحلّية أو اللغة الفرنسية لقطع صلة الذين يتتلمذُون فيها عن العربية وكُلّ ما يتصل بها(32) فإذا ما فشلت سياسة الفرنسة مع الكبار الذين لم تستطع الإدارة صبغتهم بالصبغة الفرنسية فان الآمال أصبحت مُعلّقة على الأجيال الناشئة ،لأنّه يبدو من السهل قطعها عن جذورها الأصلية ولكن سياستهم التعسُفية الزائدة عن اللزوم لمنع اللغة العربية في تلك المدارس أفضي إلى نتائج سلبية غير مُتوقعة إذ أنّ الكثير أصبحوا لا يرتادون عليها إلا قلّة قليلة من الأطفال الذين بقوا فيها على مضض مُضطرين لعدم وجود بديل، وما يقف شاهدا على عدم التحّمُس للتعلُم في تلك المدارس تحت تأطير فرنسي هو بقاء الأمية على حالها مُنتشرة في كُلّ المناطق لا تختلف نسبتها في تلك الفترات عن باقي مناطق البلاد الأُخرى اختلافا يدُّل،على نجاح الفرنسة في المناطق الامازيغية دون غيرها(33)،كما حاولوا أيضا إحياء اللغة الأمازيغية باتخاذ ما يُشبه الأدب والنّحو للزيادة من العمل بأعلى وتيرة في شدّ الخناق على لغة الضاد حيث كتبوا في النّحو ووضعوا المعاجم البربرية الفرنسية ومجاميع القصص والنوادر وحاولوا كتابتها بعد ذلك بالأبجدية اللاتينية بدلا من الأبجدية العربية (34) ، لأنّ الامازيغ أنفُسهم كما تُثبته المخطوطات استعاروا الخّط العربي وأبجديته للتأليف بها في اللغة الامازيغية من دون أيّة عراقيل ولئن كانت مُعظمها مؤلفات عقيدية الغاية قُصد بها نشر الدعوة الإسلامية على نطاق واسع في مناطق الأمازيغ (35)، وجليٌ أنَ مسعى السلطات الاستعمارية في كتابة اللغة الامازيغية باللاتينية ليس في سبيل ترقية الثقافة الامازيغية وتُراثها وإنَما خدمة لمصالح فرنسا في الجزائر ، ومن الذين فكّروا في تجسيد هذا المشرُوع أحد الضباط السامين وهو الجنرال هانوتو الذي وإنكّب على دراسة تُراث القبائل من عُمقه فتُوّجت أعماله بإدخال اللغة القبائلية مجال التعليم وصدر في هذا الشأن مرسوم أصبح معمُولا به بداية من سنة 1885م يسمح بتحضير شهادة في اللغة القبائلية في كلّية الآداب جامعة الجزائر (36) ، وغاية غايات هذا المُخطّط الذي يحمل في ثناياه بُغضا وحقدا للغة العربية هي قلع ما تبقي من آثار آدابها عند النشء الجزائري المُنتمي إلى الأسر المُحافظة التي بقيت تُدرّسُها لأبنائها رغم كل المُضايقات التي أصبح حدُّها لا يُطاق وكذلك للقضاء عليها قضاءا تاما بمعاول خفيّة لا تراها الأعيُن ولا تستشعرها النُفُوس ولقد ذكر الشيخ البشير الإبراهيمي كلاما جامعا وقف فيه على حقيقة هذه الجُهود الرامية إلى استكمال

المُخطط الاستعماري في جوانبه المُتبقية والتي تُوّجه أساسا إلى إحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية التي رأت فرنسا أنّ بقائها نقيّة مغروسة في أعماق الشعب الجزائري يحول دون تحقيق هدفها السامي المُتمثّل في إحكام السيطرة على البلاد والعباد حيث قال : " يُنكر الاستعمار عروبة الشمال الإفريقي بالقول ويعمل لها بالفعل وهو في جميع أعماله يرمي إلى تهوين العربية بالبربرية وقتل الموجود بالمعدوم ليتم له ما يُريد من استئصالهما معا ، وإنَما يتعمّدُ العربية بالحرب لأنّها عماد العروبة وممسكة للدين أنْ يزول ولأنّ لها كتابة ومع الكتابة العلم والأدب ومع الأدب التاريخ ومع كُلّ ذلك البقاء والخُلُود (37)، و لعّل مثل هذا التبرير الذي قدّمه الشيخ الإبراهيمي يُصدّقُه كل صاحب عقل سليم بعيد عن التعصُب فلماذا مثلا لم تلجأ فرنسا إلى محاربة اللغة الأمازيغية التي تُعّد كذلك أصيلة في الجزائر ، ولم نقرأ أو نسمع من يذكُرها بسوء والجواب كما يبدو واضحٌ جدّا وهو أنّهم ما تحسسّوا منها خطرا طوال مُدّة الاحتلال ولا عدُّوها وسيلة من وسائل مواجهة الاستعمار الفكري والثقافي وما كانت في يوم من الأيام لغة لتلقين المعارف ولا لتثقيف العقول بل بقيت على الدوام لغة للتخاطُب يتواصل بها أفراد المجتمع فيما بينهم، وهذا الكلام ليس اختزالا لأصالة لغة السُّكان الأصليين بالجزائر وإنَما لبيان قيمة اللغة العربية وعراقتها بالجزائر كونها تمتد إلى ما يربو عن ثلاثة عشر قرنا ، فكيف لفرنسا وأذنابها ألاّ يقبلوا بعروبة الأمازيغ بعد مُرور هذا الرّدح الطويل من الزّمن وبالعكس من ذلك يرمون بكُل ثقلهم في سبيل فرنستهم ، أليس هؤلاء السُّكان الأصليون أقرب في الواقع أنْ يُستعربوا من أنْ يُفرنسوا بحُكم ما مرّ عليهم من زمن الاستعراب ؟.

3-) نشاط الجمعية وطرائق عملها في الإصلاح اللغوي بالجزائر:

يُعدّ العامل اللغوي احدى أنجع الوسائل لخلق مجتمع متماسك يُحَس فيه كل فرد من أفراده بالانتماء عفويا وبلا دافع من منفعة أو مصلحة ، إذ يُحقق الآصرة التي تشُدُهم لامتلاكهم إمكانيات التعبير الذاتية ولمّا كانت العربية في الجزائر إبّان الاستعمار كما رأينا بحاجة إلى دعم ومُساندة لاسترجاع مكانتها إزدادت وتيرة العمل لإعادة نشرها بالمُوازاة مع تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ومنذ بداية نشاطها أولت اهتماما بالغا في برنامجها للعمل الجاد في سبيل إخراج لغة الجزائريين الأصلية من مُستنقعها الآسن من جهة لارتباطها الشديد بالإصلاح الديني الذي أخذ حصّة الأسد كما هو معرُوف ومن جهة ثانية كونها إحدى مُقوّمات المجتمع الجزائري التي أصبحت مُهددة في عُقر دارها ومُبتلاة

بالتسّلُط المُستمر للنظام الاستعماري، فقد كرّست الجمعية جُهودا لا يُستهان بها للدفاع عنها باحترام مستوى تعليمها والرفع من المحصول العلمي لمُتعلّميها وقد كان مُبتغي طاقم الجمعية فكُّ حلقة التبعية الثقافية المُجحفة فجنّدوا كل الطاقات خاصة الخرجين من مدارسها في سبيل تحقيق هذا الهدف المنشود وكان الشيخ ابن باديس وزُملائه من حاملي ألوية الجمعية يعُدُون لغة الضاد رُوح الأمة وفقدها يعني فقد الجزائريين أنفسهم ، لأنّها ذاكرة المجتمع التي تُسجّل تجاربه عبر المراحل التاريخية بكُل تقلباتها ، فهي وحدها تقدر على الاستجابة لكل ما يحدُث في المُجتمع وتُساعد على فهم ما يطرأ عليه من تغيُّرات الشيء الذي جعل الإصلاح الذي خُطط له لا يُمكن أنْ يُكتب له النّجاح ما لم يكن مُقيّدا باللغة العربية ، إذ أنّ الفكر الإصلاحي كان يقوم على أساس العمل الدعوي وهذا الأخير مُستمدٌ من نُصوص الشريعة والسُنّة اللّتان كُتبتا بالعربية فمن الواجب تكوين جيل جديد تكون لغة الضاد أداتهُ التي ينصحُ بها الآخرين وينشر بواسطتها المبادئ بينهم ويُؤثر فيهم (38) ، وفي هذا الشأن يقول ابن باديس مُفسّرا الدواعي والأسباب التي كانت وراء إلزام الجمعية العمل لإحياء اللغة العربية ونشرها على أوسع نطاق بالجزائر : " إنّ الدين الإسلامي لا يفهمه الجزائريون إلا بفهم لسانه العربي الذي هو لسانهم القومي إلا أقلّية ولسانهم الديني من دون استثناء فمن الضروري لتهذيبهم وترقيتهم أنْ يتعلّموا هذا اللّسان"(39) فكل من يرغب في فهم قواعد الإسلام لابُدّ له من تعلُمها ، لأنّها حافظة للدين ومُصحّحة للعقائد فقد كتب أيضا يقول مُبيّنا تأصُلها بالمنطقة :" انّه لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأعز والمُستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين ، اللغة العربية لغة الدين ، لغة القومية ، لغة الوطنية المحروسة " (40) فالجزائر من هذا المُنطلق سوف لن تستعيد شخصيّتها وهوّيتها إلا حين يستطيع كل جزائري قراءة لغته وكتابتها (41) بالشكل المقبول خاصة وأنّ مُعظم المتعلمين من أفراد المجتمع الجزائري آنذاك تحوّلوا إلى أفراد مُستلبي الهوية والشخصية ويشوبهم إعتقاد يتضمن حقيقة مفادها أنّه لا خيار لهم إلا التعامل مع النموذج اللغوي الجاهز(الفرنسية) ، وإذا ما أراد هؤلاء أنْ يعودوا لذواتهم ويُؤّكدوا على انتمائهم الحضاري العربي الإسلامي فلا مناص لهم إلا الرجوع إلى لغتهم التي لها عليهم حقان أكيدان، حقٌ من حيث أنّها لغة الأمةُ بحكم أنّ الأمة مسلمة وحقٌ أنّها لغة جنسها بحكم أنّ الأُمة عربية الجنس ففي المُحافظة عليها مُحافظةٌ على جنسية ودين معا(42).

تعدّدت وسائل الجمعية في الرفع من مستوى اللغة العربية ولكنّها اعتمدت بقدر أكبر على الكتاتيب والمدارس الحرّة لتحقيق هدفها المنشُود ، فعمل القائمُون على تسيير شؤُونها بشكل جاد على مستوى الكتاتيب لإحيائها بتحفيظ القرءان الذي لا يُفهم إلا بفهمها والتمّكُن من استيعاب معاني ألفاظها وتحبيب أبناء الشعب فيها وفي هذا الصدد يقول العلامة ابن باديس : "إننا نُربّي أبنائنا على القرءان ونوّجه نفوسهم إليه من أول يوم وفي كل يوم وغايتنا في ذلك أنْ يكوّن القرءان منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القُرءانيين نُعلّق آمالنا" (43) والعمل كان بنفس الوتيرة على مستوى المدارس الحُرّة إذ كان التركيز قوّيا لتُبث في الناشئة روحا جديدة من الحماس للغتهم والتعلّق بها والكدّ في تحصيلها والتعاظُم بجمالها (44) ، أما بالنسبة للطريقة التي تمّ اعتمادُها في التعليم على مستوى هذه المؤسسات التربوية فقد تضمّنت تلقين التلامذة أبسط القواعد في أسهل التراكيب ثُم العمل على تمكينها من نفوسهم بالتمرينات التطبيقية ويحرصُون على اشرابهم معنى ما يقرؤون لإصلاح اللهجات التي حرّفتها العامية ولتقويم اللّسان على الحروف ومخارجها والتشجيع على التّكلُم بها أمام الناس (45) كما أقّروا في المدارس دراسة المُتون كالأجرومية والألفية ونظّموا مسابقات في الاحتفالات والمناسبات لقرض الشعر ، كما طالبوا الإدارة الاستعمارية بحرية التعليم بالعربية والاعتراف بها رسميا وبقوا على الدوام يُنْكرون القوانين الموضوعة لخنقها ويقولون عنها بصراحة أنّها قرارات جائرة أنتجتها ظروفٌ خالية،من الرحمة ومن الكيّاسة وأملتها أفكار فارغة من الحكمة والسداد (46) ، وقد تجاوزت دعوتهم لإحياء اللغة العربية بين أهلها كل الحدود إذْ لم يتوان البعض منهم حتى في التفكير للافتداء بنفسه لقاء أنْ يبقي أبناء الشعب أحرار في رغبتهم تعلُم لغتهم الأصلية على غرار الزعيم الروحي للجمعية ورئيسها ابن باديس الذي كان يتنقل من مدينة إلى أخرى ومن بلدة إلى بلدة غيرها مُحاولا بثّ الحميّة في أفراد المجتمع للتشبُّث بلغتهم الأم وطالبا منهم الالتفاف حول الجمعية لمساعدتها بالمساهمة قدر المُستطاع في نشر اللغة العربية على أوسع نطاق ، ثم إنّه وبعد إحدى المحاولات التي سعت فيها السلطات للاستيلاء على مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة وإحلال اللغة الفرنسية فيها محل العربية صرّح ابن باديس قائلا : " لا أسمح بذلك حتى أموت " (47)،وهو الشيء الذي يدُّل دلالة بيّنة أنّ علماء الجمعية من دون استثناء أصحاب مبادئ ثابتة آمنوا حق الإيمان بمشروعهم الإصلاحي فلا سبيل لهم للنكوص ومن بين صُور دفاعهم كذلك عن اللغة العربية في الجزائر شعارها الذي رفعه طاقمها

(الجزائر وطننا ، الإسلام ديننا، العربية لغتنا) أين ربطوا فيه بين الدين والجنس وكأنّ لسان حالهم بذلك يقول لا جزائر من دون اللغة العربية ولا تاريخ ولا ذاكرة لها إلاّ من خلال هذه اللغة فهي سجل ماضيها وحاضرها والتخلي عنها إنَما هو في الحقيقة انسلاخ عن الذات الثقافية والهوية الإسلامية وتمزيق للوحدة الوطنية وحيلولة دون الآصرة التي جمعت بين أبناء الشعب الواحد خاصة وأنّه أصبح من الأمور الثابتة أنّها احدى الفواعل التي صنعت اللُحمة الاجتماعية للمجتمع الجزائري الذي تكتنف جماعاته بعضٌ من الفُروقات الجوهرية لأنّ وحدة اللّسان تصنع وحدة الثقافة فمهما اختلف الشعب في الجنس أو البيئة إذا كانت لغته واحدة فانه يظل مُتماسكا مُتحدا (48)، وهو الشيء الذي دفع برجال الجمعية لأن يولوا اهتماما بالغا بالمناطق التي تُميّزها لهجات غير العربية بحكم أنّ الإدارة كادت لهذه المناطق بكل المكائد واستعانت بكل الوسائل لتمحي لغة الضاد من أذهانهم إذ كان حاملوا ألويتها يتحركون في كل أنحاء الوطن من دون استثناء لنشر مذهبهم الإصلاحي المُتعدد الجوانب على أوسع نطاق ممكن دون إعارة أي اهتمام لا للجنس ولا للانتماء العرقي إيمانا منهم أنّ العربية لغة كل الجزائريين قبل بها الجميع كما قبلوا الإسلام الذي جاء باللّسان العربي .

لقد كان رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عارفين باللغة العربية معرفة عميقة وكانت تجري على ألسنتهم لدرجة يتحسّسُ منهم من يقرأ لهم اليوم درجة الإغراب وكانوا يتحرّون المُحادثة بها في دروسهم الإرشادية ومجالسهم العلمية وذلك لم يكن إلا لتأكيدهم على أنّها لا تزال حيّة لا ميتة كما يدّعي أعدائها حيث ذكر الإبراهيمي أنّه لمّا جيء به إلى تلمسان لنشر الفكر الإصلاحي بدأ دروسه ومحاضراته باللغة العربية الفصحى التي لا يفهمها العوام الذين أطبقت عليهم نقيصة الأمية وقد كان الغرض من ذلك على حسب قوله الرغبة في إحداث أسف في نُفوس المُحبين للعلم والدين يقض مضاجعهم فيدعوهم إلى تدارك ما فاتهم منها في أبنائهم (49) ، أما بالنسبة لإسهاماتهم (علماء الجمعية) في الإنتاج المعرفي فبالرغم من قلّتها إلا أنّها لا يُستهان بها استنادا إلى سياسة الإدارة في التضييق بمكائد ظاهرة ومُستترة ، فمع أنّه يُشاع عنهم أنّهم قدّموا تأليف الرجال على تأليف الكُتب خلّف أكثريتهم للفكر العربي بعضا من المؤلّفات بصرف النّظر عمّا كانوا يكتبوه في الجرائد فقد خلّف ابن باديس ورائه كتبا قيّمة حتى ولو أنّها مواضيع دينية بحتة إلاّ أنَها يُمكن أنْ تسهم ولو بالقدر اليسير في تعليم النشء اللغة العربية من أهمها تفسير القرءان الكريم ، من الهدي النبوي ، عقيدة التوحيد ، أحسن القصص،

رسالة في الأصول، مقالات كثيرو جمعها عمار طالبي في مؤلفه أثار الإمام ابن باديس(50)، ولا يجب هنا أنْ ننسى أعمال غيره من العلماء الذين ساهموا بكتاباتهم سواءا كانت شعرا أو نثرا في حفظ ملامح العروبة في الجزائر فمحمد العيد آل خليفة شاعر الجمعية كان تأليفه للقصائد الشعرية تأليفا غزيرا ونفس الشيء للشيخ البشير الإبراهيمي الأديب النّحرير الذي كتب كثيرا باللغة العربية حتى مكّنته معرفته بدقائقها وثراثها اللّفظي من أنْ يشغل منصب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق والعربي التبسي الذي كتب أيضا مقالات عديدة في الدعوة جمعها له أحمد الرفاعي الشرفي في كتاب تحت عنوان " الإمام العربي التبسي - مقالات في الدعوة إلي النهضة الإسلامية بالجزائر_ "، ومبارك الميلي الذي ألّف كتاب "رسالة الشرك ومظاهره "والذي عرف فيما بعد رواجا في كلّ أرجاء العالم الإسلامي وغيرهم من أعضاء الجمعية القاعديين وحاملي ألويتها الذين شاركوا كلٌ باسمه في إثبات الهوية العربية الإسلامية في الجزائر رغم الحواجز والعراقيل التي تصطنعها الإدارة الاستعمارية للحدّ من انتشار اللغة الأصلية على حساب لغة المُستعمرين الدخيلة وفيما يخُص تلك الأفكار السامة الهدَامة التي روّجتها السلطات الاستعمارية للحطّ من قدر اللغة العربية والنّيل من سمعتها فقد ردّ عليها علماء الجمعية بأفكار مُماثلة دحضوا بها أراء المتعصبين والحاقدين على لغة الجزائريين الأصلية وبيّنوا من خلالها أنّ لغة الضاد كانت بحق لغة علم وفكر وحضارة ففي القرون الوسطى يوم كان العالم كله يتخبَط في ظلمات الجهل كانت العربية اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم وآوته ونصرته(51)، وإذا ما كان الأمر كذلك فلماذا التحامل عليها في هذا الزمان ووصفها بالقصور والجمود ثُم كيف يُمكن لهؤلاء أنْ يُفسّروا مقدرتها في أقّل من نصف قرن بترجمة علوم الأمم ونُظُمها الاجتماعية وآدابها فوعت الفلسفة بجميع فروعها والرياضيات بجميع أصنافها والطّب والهندسة والاجتماع وهذه العلوم هي التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة (52)، وانطلاقا من هذا الكلام فلعلّه ليس من المُبالغة القول أنّ البشرية جمعاء إلى حدّ ما تدين للغة العربية التي حفظت تُراث الكثير من الأمم وعلومها وآدابها أما الذين رموها بالوهن والجمود فقد كتب الشيخ الإبراهيمي مُدافعا عنها ما يلي : " وفي هذه اللغة (العربية) من المزايا التي يعّزُ نظيرها في لغات البشر والاتساع في التعبير عن الوجدانيات والوجدان أساس للحضارات والعلوم كُلّها " (53)، كإشارة منه إلى أنّ العيب والخلل ليس فيها وإنّما في من يتكلّم بها من أفراد

المجتمع الجزائري الذين ارتَدوا عن لغتهم التي شهدت تأخرا لم يسبق له مثيل في الجزائر بالرغم من أنّها احدى أهّم الطوابع التي تطبع عروبتهم .

لقد بيّن علماء الجمعية للشعب الجزائري أنّ الحّل في التمدُن والتحضّر لا يكمن في استيراد لغة المُستعمرين وذكّروهم أنّ التراث الثقافي العربي الإسلامي الجزائري تُراثٌ له من الثروة و الغنا ما ليس لتُراث كثير من المجتمعات الأخرى وما فيه من محتويات علمية وعقلية كفيل للخروج من دائرة التبعية اللغوية والتقليد الذي يُعد أسٌ هشٌ من أسس البناء الثقافي ، فالتنّكُر للغة الأصلية إنّما هو إذلال لها ، وما ذلّت لغة شعب إلا ذُلّ هو ولا انحطّت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار ومن هذا يفرض الأجنبي المُستعمر لغته فرضا على الأمة المُستعمرة ويركبهم بها ويُشعرهم عظمته فيها ويلحقهُم من ناحيتها(54)، أما بالنسبة لموقف المبادرين بالجمعية من اللغة الفرنسية فقد كان موقفا سليما حيث أنّ الباحث في الموضوع سوف لن يجد رأيا أو كلاما لأحدهم تهجّم فيه عليها بل بالعكس تماما فقد سمح القائمون على شؤونها بتلقينها في المدارس الحُرة في زمن كانت فيه كُبريات مراكز الإشعاع العلمي والجوامع والمعاهد في الوطن العربي لا تسمح بتعلّمها ومما يُلقي ضوءا على هذا الرأي ما حدث مع أحد الطلبة الزيتونيين الذي قدم طلبا إلى الإدارة الثقافية يلتمس فيه السماح له باستكمال دراسته في فرنسا بعد أن انتهي من دراسته الإسلامية فاعترضت الإدارة على طلبه وكان السبب أنه لا حاجة من السفر إلى فرنسا لدراسة اللغة الفرنسية (55)،ولعل تفَتُح ابن باديس نفسُه على اللغة الفرنسية يُمكن أنْ نلمس له فهما من خلال دروسه التي تحدث فيها عن لُزُوم تعلُم اللغات المُحتاج إلى تحصيلها إذا كانت مصلحة الأمة تقتضي ذلك حيث ذكر في إحداها ما يلي :" إننا اليوم وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح ، علينا أنْ نعرف لغتهم وخطّهُم كما عليهم هم أنْ يعرفوا لُغتنا وخطّنا "(56) ،ثُم إنّ الجمعية حاولت إشراك المُثقفين باللغة الفرنسية للمساهمة في نشر الإصلاح فقد جاء في جريدة البصائر مقالا وُجّه إليهم كُتب فيه الآتي : " عليكم أنْ تلتّفوا إلى أمتكم وتنتشلوها مما هي فيه بما عندكم وما اكتسبتُم من خبرة ، مُحافظين لها على مُقوماتها سائرين بها في موكب المدنية الحقّة بين الأمم وبهذا تخدمون أنفُسكم وتخدمون الإنسانية ولا يمنع هذا من أخذ العلم من كل أمة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا " (57) وهو الشيء الذي دفع بالقائمين على مدارس الجمعية إلى اللجوء لمُعلمين جزائريين مُسلمين يُدّرسون فيها اللغة الفرنسية التي أصبحت مُقررا من مُقرراتها الدراسية، وهو شيء محمود تدُّل عليه حتى الدراسات في

أيامنا هذه حيث أنّ إتقان الفرد للغته الأولى يُسّهل عليه تعلم اللغة الثانية لاكتسابه خبرة في تعلَم اللغة بشكل عام فتعلم اللغة الثانية بعد إتقان اللغة الأولى قرار في صالح اللغتين في آن واحد (58) .

لقد عظُم خطبُ الجزائريين وجلّ مُصابهم في لغتهم الأصلية (العربية) إلى درجة ما كُنّا شرحناه فلم يكن إطلاقا على جانب من اليُسر مشروع إعادة نشر اللغة العربية في الجزائر بعد مُضي ما يربو عن قرن من الزمن على وجود الفرنسيين الذين أرادوا لها أنْ تختفي من الوجود باستراتيجيات متنوّعة كانت نتيجتها لغة مهملة وممقُوتة ومُطاردة على الرغم من حيوّيتها والقدرة على التكيُّف وتمكُنّها من استيعاب العلوم بأنواعها (59)، وعلى الرغم أيضا من أنّها كانت لغة العالم وسبيل الشعوب إلى المعارف والعلوم ، إذْ وبعد أنْ حلّ الفرنسيس بالجزائر واحتلوا أرضها فكّر الخُبراء الاستعماريون في احتلال عقول الجزائريين لوعيهم التام أنّ الاحتلال المادي سيبقي منقوصا لا معنى له من دون الّنفاذ إلى العقول والأذهان ووسيلتهم في ذلك طبعا لغتهم التي تراكمت حتى بالكاد تأصّلت بالجزائر على حساب اللغة العربية التي لم تجد لها من ناصر سوى الزوايا والمساجد ، لكن مع زيادة نشاط الجمعية وتشمير حاملي ألويتها على ساعد الجّد استطاعوا تعطيل مشروع فرنسا اللغوي ، فتحقق للجزائريين نسبهم العربي الصريح بريئا من شوائب الأقراف والهجنة وأصبح حيا في نفوسهم شعور الاعتزاز بأنفسهم وفي لسانهم شعور الكرامة للغتهم(60)، ولمّا كانت مدارس الجمعية الحُرّة الملاذ الأخير لأبناء الشعب الذين فضّلوا التثّقُف وطلب العلم باللغة الأم تُدّرس فيها آداب اللغة العربية ويحفظ فيها التلامذة المُتون والحديث وقواعد النحو والصرف استقامت ألسنة النشء وصّحت اللهجات وبدأت ملكة الخطابة تنطبع في بعضهم وكذلك في الشباب الذي تكوّن في المدارس ومعهد ابن باديس حيث أصبحوا بالرغم من قلّتهم ذوي ألسنة سيّالة ومُحاضرون بلغوا الغاية فصاحة ورباطة جأش ونصاعة لفظ وتفّننا في المواضيع وملكاتها ومتانة إلقاء (61)،وهذا يُعد بطبيعة الحال من أسمى أهداف الجمعية لتعطيل المشروع التغريبي الثقافي ضف إلى هذا أنّها استطاعت أنْ تُسجّل نجاحا في الحملة التي شنّتها على مستوى جرائدها وكذلك العرائض الاحتجاجية التي تُرسل إليها إلي الإدارة للضغط على الحكومة الفرنسية وإرغامها على التراجع عن قرار 1838م الذي يقضي بعدم السماح للجزائريين التعليم باللغة العربية وجعلها ضمن اللغات الأجنبية في الجزائر حيث تمَ فعليا في سنة 1947م ترسيم اللغة العربية بعد مُضي مائة وثمانية عشر

عام على الاحتلال(62)، وعلى تغييبها من الواقع الثقافي الجزائري ثُم إنَه في سنة 1955م أعلنت من القاهرة جبهة التحرير الوطني تأكيدا على أنِ اللغة العربية هي اللغة الرسمية بالجزائر في اجتماعها الذي شارك فيه الشيخين الفوضيل الورتيلاني والبشير الإبراهيمي ما يلي: " إنّ الجزائر عربية الجنس مسلمة العقيدة ، فهي بالإسلام والعروبة كانت وعلى الإسلام والعروبة تعيش وهي بذلك تحترم سائر الأديان والمعتقدات والأجناس وتشهر بسائر النُظُم العُنصرية الاستعمارية "(63)، وبالإضافة إلى كل هذا فقد كان للجهود المُضنية التي قام بها العلماء طوال فترة نشاطهم الإصلاحي انعكاسات في دفع عملية التعليم العربي في الجزائر بعد الاستقلال فإليها يرجع الفضل في تكوين النُخبة المُفكّرة من المُعرّبين واليها يرجع الفضل في إعادة الاعتبار إلى اللغة العربية (64) ، ولعله ليس أمرا مبالغا فيه القول أنّ من يعرف اللغة العربية في الجزائر آنذاك وحتى بعد عهد قريب من الاستقلال مدين للعمل الضّخم الذي قام به ابن باديس(65) ومن عمل معه في إحداث الثورة التعليمية فيها ،لأنّ هؤلاء حقا كانوا عُنوانا للمقاومة الثقافية بمُجابهتهم المشروع الاستعماري الذي كان يقتضي فرنسة اللّسان إذْ أكّدوا أنّهم أصحاب مشروع رغم قلّة الإمكانيات ومحدُوديتها لذا لا يجب التغاضي ونسيان المكاسب الهامة التي حققوها للمجتمع فيما يخُص إعادة نشر اللغة العربية ومُحاولة تعميمها لتترقي إلى مكانتها التي كانت عليها ولتكون اللسان الذي ينطق به الجزائريون بعد أنْ أصبح مُشّبعا بالمُفردات الفرنسية ، فالعمل الذي قامت به الجمعية في نُصرة لغة الضاد لا يجب قصر النظر إليه فقط من زاوية ما يظهر للعيان من تحفيظ للقرآن وتدريس أحكام الفقه والنّحو والصرف في تلك الحقبة من الزمن لأنّ الرهان الذي حاول علمائها كسبه هو تهيئة أجيال جديدة تستوعب مشروعها وتنسجم معها لتتمكّن من احتضان لغتها الأصلية وتُدافع عنها وتنشأ تنشئة تقوم على غرس العروبة في نفوسها ، فدورها شبيه بالسّهم الذي إنْ لم يُرشد الناس إلى الهدف الجوهري دلّهم إليه فبالرغم من أنَها لم تستطع ترسيم اللغة العربية وتعيدها اللغة الأولى في البلاد آنذاك فقد ذكّرت الفئات العريضة للشعب بلغتهم الأم ودعتهُم إلى ضرُورة التمّسُك بها كاحدي عناصر ثقافتها ليبقى الإشكال القائم كما نعتقد في مدى الاستجابة لهذه الدعوة عند أفراد المجتمع الجزائري من جهة ومن جهة ثانية في قبولها من الذين دخلوا البلاد بعد الاستقلال من الباب الخلفي وتصرفوا طرائق توجب إعادة النظر الطويل فيها .

خـاتمـة:

بعدما تمَ عرضه تجلَي بما لا يعتريه ريب أنَ من يُشكَك في المسار الذي سار عليه إبن باديس ومن تحلَق حوله من العلماء أو يُحاول الالتان من نشاطهم في إيقاف اللغة العربية على قدميها في الجزائر من جديد بالقول أنَها جهود فارغة ، ضئيلة الآثار وقليلة النتائج إنَما هو مُجانبٌ للصواب وعابثٌ بالحقائق إذ لا يمكن التعامي عن عملهم الدءوب في نفض غبار التجميد والتهميش عنها، يكفيهم ما لاقوه من صنوف الأذى ألوانا وأشكالا لأنْ تُحفظ من الضياع فالحقيقة الواجب الإقرار بها أنَ من يتفنن في الحديث بلغة الضاد في جزائر ما بعد الاستقلال مدين لهؤلاء الرجال الذين يُعتبرون رمزا للنقاوة والخيرية وتجسيدا لمعنى الإخلاص في خدمة البلاد والعباد .

الـهـوامـش:

1) محمد المبارك ، **فقه اللغة وخصائص العربية** ، بيروت ، دار الفكر ،1975م ، ص 136.

2) حسين عبدوس ، **"التكامل الثقافي الأمازيغي العربي ضمن وحدة العقيدة "**، مجلة رسالة المسجد ، الجزائر،وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ،العدد 6، 2005م، ص 64.

3) نفس المرجع ، ص 65.

4) عادل نويهض ، **أعلام الجزائر** ،بيروت ، دار المؤسسة الثقافية ، ط2، 1980م ، ص 201.

5) موسى الشوملي ، **شرح ألفية ابن معطي**، القاهرة ، دار البصائر للنشر ،2007م ، ص 7.

6) ابو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي** ، ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي، ط1998،1م ،ج1، ص 78.

7) عبد المجيد حملاوي ، "**سيدي خليل الفقيه المالكي**" ،مجلة منبر الامام مالك بن انس ، الجزائر، دار الهدي للطباعة والنشر ، عدد 2 ،1999م ، ص 51.

8) التهامي مجوري ، **"المنظومة التربوية بين العلم والمغالطة "**، مجلة العصر ، الجزائر،المؤسسة الوطنية للمنشورات الإسلامية ،العدد 3، 2002م، ص36.

9) عمارحامد ،**مواجهة العولمة في التعليم والثقافة** ، القاهرة ،مكتبة الدار العربية ،ط1، 2000م ، ص 212.

10) عبد المالك مرتاض ،**الصراع بين العربية والفرنسية في نهضة لادب العربي المعاصر (1925م- 1954م)**، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،ط2، 1983م، ص 21.

11) عمار حامد ،مرجع سبق ذكره ، ص 212.

12) سعيد إسماعيل علي،**الفكرلتربوي العربي الحديث**،الكويت ،المجلس الوطني للثقافة،1987م،ص 169

13) أحمد بن نعمان ،" **الحصانة الدينية للشخصية الجزائرية "**، مجلة الأصالة ، الجزائر ، مطبعة البعث ، العدد 85-86 ، 1980م ، ص 76.

14) أنور الجندي ، **العالم الاسلامي والاستعمار الثقافي والاجتماعي والسياسي**، القاهرة ، الدار القومية العربية ،1985م، ص 237.

15)أحمد بن نعمان ، مرجع سبق ذكره ،ص77.

16) رابح تركي ،**الشخصية الوطنية والتعليم القومي** ، الجزائر ، ش و ن ت ، ط2 ،1976م ،ص 94.

17) حمدان خوجة ، **المرآة** ، تر: العربي الزبيري ، الجزائر ، ش و ن ت، 1975م ، ص 54.

18) الفوضيل الورتيلاني ، **الجزائر الثائرة** ، الجزائر ، دار الهدى للطباعة والنشر ، 1992م ، ص 169.
19) محمد مصايف،**في الثورة والتعريب** ،الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،ط2، 1981م ، ص 69.
20) انور الجندي ، مرجع سبق ذكره ، ص 113.
21) رابح تركي ، مرجع سبق ذكره ، 106.
22) الفوضيل الورتيلاني ، مرجع سبق ذكره، ص 90.
23) رابح تركي ، مرجع سبق ذكره ، ص 361.
24) مالك بن نبي ، **وجهة العالم الاسلامي** ، لبنان ، دار الفكر المعاصر ، ط2 ، 2002م ، ص 65.
25) أحمد بن نعمان ، مرجع سبق ذكره، ص 76.
26) زكرياء عبد الجواد ،" **الجزائر النسر الجريح هل إسترد عافيته ؟** " ، مجلة العربي ،الكويت،تصدر عن وزارة الإعلام ، العدد 501، 2000م، ص 186.
27) أنور الجندي ، مرجع سبق ذكره ، ص 236.
28) توفيق العاني ، **الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة**،بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1993م ، ص 98.
29) محمد البشير الإبراهيمي ، **آثار البشير الإبراهيمي** ، الجزائر ، م و ن ت ،ج1 ،ط1 ، 1978م ، ص 262.
30) سعيد إسماعيل علي ، مرجع سبق ذكره ، ص 168.
31) مصطفي صادق الرافعي، **وحي القلم** ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ج3، 2002م ، ص 29.
32) أحمد بن نعمان ، مرجع سبق ذكره ، ص 77.
33) نفس المرجع ، ص 78.
34) محمد علي مازن ،**عروبة الجزائر الحقيقة المغمورة** ، مصر ، المنظمة العربية للتربية ، 1992م ، ص 138.
35) حسين عبدوس ، مرجع سبق ذكره، ص 70- ص 71.
36) نفس المرجع ، ص 74.
37) محمد البشير لابراهيمي ، **عيون البصائر** ، القاهرة ، دار المعارف ،ج2، 1964م ،ص 79.
38) سميح ابو مغلي ، **في فقه اللغة وقضايا العربية** ، عمان ، دار مجد للنشر والتوزيع ، ط1 ،1987م، ص 256.
39) عبد الحميد ابن باديس ،**اثار الامام ابن باديس** ، قسنطينة ، دار البعث، ط1، 1984م،ص 40.
40) محمد عمارة ، **الإسلام والعروبة** ، القاهرة ، دار الشروق ، ط1 ، 1988م ، ص53.
41) Khaoula Taleb Ibrahimi , **Les algériens et leur(s) langues(s)** , Alger , Dar el hikma , 2eme édition ,1997 , p223.
42) محمد البشير الإبراهيمي، **عيون البصائر** ، مرجع سبق ذكره ، ج1، ص 2.
43) عمار طالبي،**آثار إبن باديس**،الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط3 ، ج1997،2م ، ص 142.
44) محمد البشير الابراهيمي ، **آثار البشير الإبراهيمي**، مرجع سبق ذكره ، ج1 ، ص 264.
45) نفس المرجع ، ص 128.
46) محمد البشير الإبراهيمي ،**عيون البصائر** ، مرجع سبق ذكره ،ج1، ، ص 24.
47) أحمد زكي صلاح ،**أعلام النهضة العربية الإسلامية** ، القاهرة ، مركز الحضارة العربية ، ط1، 2001م ،ص 116.
48) سميح أبو مغلي ، مرجع سبق ذكره ، ص 257.
49) محمد البشير الإبراهيمي ، **آثار الشيخ البشير الإبراهيمي** ، مرجع سبق ذكره ،ج1، ص 76.
50) أحمد زكي صلاح ، مرجع سبق ذكره ، ص 112.
51) محمد البشير الإبراهيمي ، **آثار البشير الإبراهيمي** ، مرجع سبق ذكره ،ج1، ص 263.
52) نفس المرجع ، ج1، ص 258.
53) نفس المرجع ، ج1، ص 261.
54)مصطفي صادق الرافعي ، مرجع سبق ذكره ، ج3 ، ص 33- 34.

55) مالك بن نبي ، مرجع سبق ذكره ، ص 64.

56) عبد الحميد ابن باديس ، **مجالس التذكير من حديث البشير النذير** ، الجزائر ، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ، ط1 ، 1983م ، ص 72.

57) أحمد الخطيب ، **جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر** ، الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985م ، ص 177.

58) فخر الدين قباوة ، مرجع سبق ذكره ، 71.

59) العربي الزبيري ، **تاريخ الجزائر المعاصر** ، دمشق ، إتحاد الكُتاب العرب ، ط2 ، 1999م ،ج2، ص 210.

60) محمد العزيز الساحلي ، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال فكر زعماء الإصلاح**، بيروت ، كومبيوتايب، 1995م ، ص 141.

61) محمد البشير الإبراهيمي ، **آثار البشير الإبراهيمي** ، ج1، ص 128- 129.

62) رابح تركي ، مرجع سبق ذكره ، ص 157.

63) أحمد بن نعمان ، ، مرجع سبق ذكره ، ص 144.

64) عبد الرحمان سلامة ، **التعريب في الجزائر ماضيا وحاضرا ومستقبلا** ، دمشق ، وزارة الإرشاد القومي ، 1976م، ص 15.

65) انور الجندي، **العالم الإسلامي والاستعمار الثقافي والاجتماعي والسياسي** ، مرجع سبق ذكره ، ص 290.